ترجمة فرنسية لكتاب الصحافي البريطاني هيو ميلز

«الجزيرة»: القناة التي تتحدى الغرب الرأي الآخر والدسائس التي لا تنتهي!

باريس ـ «القدس العربي»

من عبد الله كرمون:

«إما أن تصمتوا أو سوف تتطور الأمور إلى أبعد من هذا». ص ,316

(وورفيل القبطان الأمريكي في الرمادي لمراسل الجزيرة هناك حميد حداد

بعد أن تمت مصادرة أدواتهم وحقهم في تغطية انفجار ثمة واستجواب شهود عيان!)

لم ينجز هيو ميلز مع ذلك سوى تحر ذي نفس طويل (458 صفحة من القطع المتوسط) عن التصاعد التاريخي الذي عرفته القناة القطرية منذ إنشائها سنة 1996 حتى آخر التطورات التي لابست وجودها في السنة الماضية. غير أنه لامس جدية مبدأ الرأي الآخر، وأفشى القلق الذي يأخذنا جميعا تجاه الدسائس التي لا تنتهي ضد الحرية!

يلزم أن أشير أولا إلى أن الصحافي هو ابن أحد الدبلوماسيين الإنكليز هذا الذي طاف، في تنقله بين مهامه، بعائلته في عدة أقطار. فبعد أن ولد هيو بالسعودية بدأ تعلم العربية خلال دراسته بليبيا ثم بعد ذلك بأكسفورد واليمن، ما جعله يتمكن منها، ويبلور فرصته السانحة في تتبع وتواصل مثالين سواء بخصوص برامج القناة أو بشأن كل الشرائح التي مضى إلى استجوابها بهذا الخصوص.

فهل يجدي إذن أن نتحرى عن كل ملابسات هذه القناة؟

وما جدوى هذا الكتاب في حال عدم اختلافه عن باقي التقارير التي تنجزها جهات معينة لأغراض متباينة عن هذه القناة نفسها أو عن غيرها من المؤسسات الفكرية والثقافية أو الإعلامية سواء كانت مجموعات أو أشخاصا؟

شيء أساسي هو أن هيو ميلز استطاع بأسلوبه المرن، أقصد روح كتابته، وقدرته الهائلة على تحمل تضافر مستويات كثيرة داخل خطابه أن يجمع بين استثمار كثير من المعطيات وعرضها ثم يعمد إلى التساؤل حولها سواء أقام به هو نفسه أو لجأ إلى محاور معين يخمن كونه قد يكون خصما لقضية معينة أو يكون من سينتصر لها. كما لا يفوت أية فرصة تسنح له كي يمرر بعض رؤاه الخاصة ويثير بعض تهكم مُر كلما شاء ذلك وسمح السياق به.

لربما كانت ولادة قناة الجزيرة ضربا من الصدفة المحضة في دولة قطر بعينها دون غيرها، وإن كنت لا أتحدث هنا عن تلك الصدفة بمعنى حدوث ما لم نهيئ له أدنى تخطيط، ذلك أن حتى ما نسميه كذلك في العلوم أو السوسيولوجيا لم يكن قط سوى وليد ميكانيزمات سابقة أو في كمون، ذلك أن مشروع الجزيرة كان حلما وتم إخضاعه بعد ذلك إلى تصاميم واقعية خلصت في آخر الأمر إلى ما صار هذا «الشيطان الكبير الذي يتحدى الغرب»!

ما يهم في كتاب هيو ميلز هو طريقته المطردة في التفكير ذلك أنه لربما قد فهم موضوعه دون أن أعني ثمة إطلاقية في ذلك، غير أنه سعى إلى انجاز الخطاطة الميدانية في أول الأمر، بما فيها آراء عامة الناس الذين التقى بهم في المقاهي أو الأسواق أو في أماكن عمومية أو في منازلهم في الشرق وفي الغرب، إضافة إلى صحافيي ومسؤولي الجزيرة وكذا كل الشخصيات المهمة التي كان له معها حديث بهذا الشأن. وصاغ بعد ذلك أفكاره تلك ورتبها وسبكها كما لو أنه ما يزال يكتب لما نقرأه ويحاول أن يعالج كل القضايا الشائكة التي يعج بها موضوعه بشكل خطي أي شيئا فشيئا. فتراه أحيانا وكأنه لا يدرك ماذا سوف يخلص به في شأن أو آخر، مثال إن كانت الجزيرة حليفة أسامة بن لادن ومروجة خطاباته وأفكاره؟

يسعى إذن هيو من خلال وسائله وكفاءته وقدرته على بذل مجهودات كثيرة سواء ما تعلق منها بتشغيل ذهنه أو ببذل وقته أو برهن راحته في تنقلاته العديدة والمتباعدة في الأمكنة والممتدة في الأزمنة.

لم يكن يشعر هو نفسه أن شعار القناة التي يستقرىء عنها، أعني «الرأي والرأي الآخر»، قد جعله نفسه شعار عمله وكأنه بذلك صحافي آخر من طراز صحافيي الجزيرة ينجز برنامجا عوض كتاب عن رأي الناس في الجزيرة ومن تكون ولماذا ولدت ومن أنجبها ولماذا ومن تكفل برعايتها وبأي مقابل وكيف ولماذا لم يكد يحسم المرء أهو صديقها أم عدوها أو بالأحرى أهي من الأصدقاء أم هي صديقة الأعداء؟

على كل فإن كان تأسيس قناة الجزيرة قد جاء بعد درس حازم لفكرة قناة إخبارية حرة ومختلفة فإن كتابة ميلز عنها كانت خلاف ذلك آتية من خلال تجربته لدن ضرورة مهنية، يومها لما كان يعمل لحساب قناة «سكي نيوز»، وكان لزاما عليه أن «يتجسس» ـ هي لفظة الكاتب ـ على قنوات عربية ومن ضمنها الجزيرة كي يتأكد لمن يكون لحظتها نصيب السبق، خصوصا وقت الاجتياح الأمريكي للعراق. كما يتفق أن ترغب القناة التي توظفه أن تبتاع منها صورها عن الحرب ما لبث مراسلوها متواجدين ثمة وما داموا يحظون بمعرفة جيدة بالميدان.

كان إذن ذلك الاحتكاك مع القناة ما ولّد لديه شغفه بتتبع مسارها واقتراح قضية ونقيض سر كل جودة وكفاءة عطائها وكذا ملابسات الغبار الذي تستثيره في كل مكان سواء لدى العرب أو لدى الغربيين.

لقد طرح هيو ميلز أسئلة جيدة ومضى عبر منهج تصاعدي من خلل الزمن والأحداث البارزة سواء منها التي صنعت قدر الجزيرة أو تلك التي صنعتها الجزيرة، إذ أن ميلز لم يجد لجاجة في أن يخلص أن تاريخ الجزيرة ليس مجرد تاريخ قناة تلفزيونية وإنما هو في واقع الأمر تاريخ كل الاضطرابات التي كان الشرق الأوسط مسرحا لها في العقد الأخير.

يُنصب ولي عهد قطر نفسه لدى سفرة والده إلى سويسرا بعد أن لاحت له ثمة شكوك حول خطر إجهاض حلمه في تولي الحكم لما رأى ما رأى لدى بعض الخلع والتنصيب الذي مارسه والده بكثير من الريبة والإمعان. تنبثق قناة الجزيرة إذن من بين يدي الشيخ حمد، هذا الأوتوقراطي الذي تعلم في الغرب وتشبع بقيمه وشاء برؤية ليست أكثر من ليبرالية أن يسود بلده. فقناة الجزيرة إذن ليست وليدة نظام ديموقراطي في شيء، غير أن ما يشكل أكبر ميزاتها هو استقلالية خط تحريرها ومبدأ حرية التعبير عندها. شيء آخر جدير بالذكر أن قطر ألغت حينها وزارة الإعلام!

يحضرني مثال الصحافي وليد العمري، الذي لا يجهل أحد نبرة صوته، إذ كان كل ما يخشاه، حسب ميلز، لدى بدء تقدمه للعمل لحساب القناة، هو أن يُمس في حريته الصحافية، أهم ما يشكل السلاح الأساسي لعمل صحافي حقيق بهذا الاسم.

لقد ركز هيو ميلز على محطات عديدة في مسار قناة الجزيرة كانت هي ما شكل بحق بؤر انطلاقها وتوفيقها كما شكل في الآن نفسه تلك المستنقعات التي أراد خصومها باطلا أو حتى بحق أن يمرغوها فيها.

كان نقل أحداث الانتفاضة الثانية بكل ما خالطه من اتهامات، سواء من الجانب الإسرائيلي أو الأمريكي، بكون القناة تقف جنب الفلسطينيين وتنفخ في النعرة الاستشهادية في تمجيد الانتحاريين وبكل ما اعتراه من مخاطر بفريق الجزيرة في رام الله بما في ذلك العمري الذي لم يهدأ حينئذ قط دون أن يضع العالم أجمع أمام صور ما يحدث ثمة، حتى أن ذلك قد أسفر عن كثير من المضايقات الإسرائيلية وكثير من الإهانات المادية والمعنوية، وقد أتى ميلز على كثير من تفاصيلها في كتابه.

وكان نفس الشيء ما حدث بالنسبة لما بعد تفجيرات ايلول (سبتمبر) وقصف القوات الأمريكية لأفغانستان، ما شكل في الآن نفسه كما أسلفت إشعاعا لقناة الجزيرة بتواجدها في الميدان، وفي أحيان كثيرة، وحيدة. وفسح لها المجال لأن يكون كل السبق لها وأن تبيع صور الحرب لقنوات عالمية، غير أن ذلك قد قاست إزاءه كثيرا من ردود الأفعال التي لم تتخلص بعد من كل عواقبها، ذلك أن تيسير علوني مراسلها في أفغانستان الذي كان من يضطلع بمهام كثيرة ثمة قد وقع في مصيدة كل المتقولين وكادت تصير التهم حقيقة واقعة أم صارته! وإن كانت تلك القضية تخفي أكثر مما تظهر، وكان علوني في كل الأحوال يستحق عقابا لدى الإدارة الأمريكية ـ بالنسبة إليهم ـ والدائرين في فلكها.

الجزيرة أيضا كانت حاضرة في العراق بشكل مكثف، في الشمال والجنوب وفي الوسط، فجر الاجتياح الأمريكي وأدت غاليا ثمن ذلك، إذ طالما اضطربت آراء كل الأطراف حول موالاتها لجهة دون أخرى، حتى كانت المهزلة اللاذعة في كونها تجمع في نفس الآن ما بين كل المتناقضات، بأن تكون موالية لصدام ولأمريكا ولإسرائيل وللسنة والشيعة والأنظمة العربية هكذا أم الأربع والأربعين برأسين!

لأول مرة بالفعل يعرف العالم قناة من طراز الجزيرة، فالقنوات الوطنية للبلدان المسماة بدول العالم الثالث، تقع حتما تحت تصرف وزارة الإعلام ما يمكن أن يكون مقابلا حقيقيا للرقابة، فتراها إضافة إلى هزالة برامجها لا تردد إلا النشيد الذي يُلقن لها، إضافة إلى كل مساوئها الأخرى. كما أن القنوات الغربية ليست أفضل من نظيراتها الأخرى، بل تمتلك كلها في أسفل الساق نفس كعب أخيل!

وإلا فلماذا تغلق مكاتب الجزيرة لمدة تطول أو تقصر في كثير من العواصم العربية أو الغربية أم غيرها؟ لماذا تصل شكايات على الدوام إلى شيخ قطر؟ لماذا تدمر القوات الأمريكية أو الإسرائيلية مكاتب الجزيرة؟ لماذا يحاصر صحافيوها ومصوروها؟ لماذا عذبوا في العراق؟

لماذا عذبت قوات الاحتلال الأمريكية مصور الجزيرة في بعقوبة وأرادت أن ترغمه أن يعترف بأنه كان على علم بالانفجار الذي استهدف أحد مواكبها على الطريق العامة قبل وقوعه؟ لماذا لم تجد تلك القوات وجلاديها حرجا في حبس ذلك المصور في مراحيض متنوعة مرورا بسجن أبي غريب وفي رميه في آخر المطاف، بعد شهر من كل أنواع المهانة، على السبيل ضاحية بغداد مسربلا برداء ملطخ بالقيء!

صهيب السماري أيضا عانى نفس الشيء ودام نزوله في أبي غريب شهرين كاملين.

لكني لا أفهم شيئا حول نية السؤال الذي طرح معد برنامج «الاتجاه المعاكس» على قناة الجزيرة، خاصة بما يبدر منه من تنازل رمزي، لما تساءل: أليس التعذيب الذي يمارس في سجون الأنظمة العربية أفظع من كل ما مورس بأبي غريب؟ خاصة وأن يطرح السؤال في تلك الظروف بعينها وأن يكون فيه ذلك «التفضيل»! التعذيب في نظري هو التعذيب والأنظمة العربية تستوي في قمعها وديكتاتورياتها مع النظام الامبريالي الأمريكي.

خلال حرب احتلال العراق كان النظام الأمريكي هو من ينظم نشرات الأخبار إذ تملي الإدارة على القنوات الأمريكية ما يسمح لها بنشره وما لا يجب. نفس الشيء تقريبا في الغالب كان حال بريطانيا. غير أن الجزيرة شاءت انسجاما مع مسؤوليتها الإعلامية أن تضع رهن مشاهديها صور وتعاليق ما يحدث، إذ المشاهد هو المعول عليه فهو من يستطيع أن يحكم فلماذا نحرمه من الاطلاع على المجريات إن لم نكن نخشى على مصالح!

الكنيسة أيضا في عز تسلطها قلنا عنها إنها تحرم من الاطلاع على الكتب كي تحتفظ بحق نشر ما يسند فقط سلطتها على الأرض.

كلما تم الاتصال بالشيخ حمد يشير بأنه سوف يوصل الرسالة إلى إدارة الجزيرة وسوف يؤكد لهم ضرورة تقييم مساعيهم، لكنه لا ينسى أن يضيف أنه ليس متكلما باسم الجزيرة وبأن حكومة قطر لا تمتلك سلطة على مكتب تحرير القناة. يحاجج هيو ميلز عبر كتابه حول كثير من الوقائع وكثير من المفاهيم المستعملة في خطاب صحافيي الجزيرة، سواء تعلق الأمر بفلسطين أو إسرائيل أو أمريكا أو العراق أو القاعدة وشيخها أسامة بن لادن أو أفغانستان و«طلبة الكتاتيب القرآنية». إن كان محايدا أم لا؟ أو محرضا على العنف أم لا؟ أو مواليا أم لا؟ إن نطقنا «الشهيد» أو «قوات التحالف» أو «عملية استشهادية» أو «أراضي محتلة» وغيرها.. أو إن استجوبنا شارون أو بن لادن أو سمحنا لتوني بلير أن يعبر عن رأيه على أثير القناة أم فعلنا نفس الشيء بالنسبة لصدام حسين؟ وغيرهم..

إن جدارة هيو ميلز، بغض النظر عن بعض منزلقاته، لا تكمن فقط في إنجاز كتاب متماسك حول قناة الجزيرة وإنما في فسحه المجال للقارئ بأن ينظر أبعد من أنفه، ويفكر أكثر في الملابسات السياسية لبعض تفاصيل قد يخيل للرائي في البدء أنها تافهة ولا شأن لها في شيء يذكر.

يحيطه أولا بثراء دول الخليج وبوزن البترودولار والأوتوقراطيات المحلية سواء كانت عشائر أو عصبيات قبلية قديمة جديدة وبممكنات كونها كلها لدى القطب العالمي المسير أهم الأعمدة الصلبة لاستراتيجيات هيمنته على المنطقة ومن تم على العالم أجمع على كل المستويات. كما يعرج به على الأراضي المحتلة ليدرك عن قرب نوع الصراع وأطرافه وحدة قساوة الظروف التي يحيا فيها الكثيرون. ودون أن أقوم بالدورة كلها حول كل المناطق التي أسدل عليها كلكل الظلم في العالم والتي تتبع من خلالها هيو ميلز حيثيات عمل الجزيرة فإن طغيان النظام الأمريكي وحلفائه في العالم باد حتى لمن لا يبصر، سواء على المستوى المادي وسواء في رغبته خنق أنفاس الجزيرة التي تنازعه سلطة الإعلام بأن تفسح المجال لكل الآراء عكس ما يطمح إليه هو في تفرده بكل الميادين يصول ويجول فيها. وتبًا لمن ينازع العملاق رداءه!

لكن لماذا تم اختيار غلاف الطبعة الفرنسية كالتالي: الجزء العلوي تصغير مضعف لواجهة من شاشات قاعة إرسال ما ثم مستطيل في الوسط عرضه حوالي خمسة سنتيمترات باللون الأحمر الفاقع يحمل لفظة الجزيرة بحروف ضخمة وبالأسود والعنوان الفرعي «الجزيرة التي تتحدى الغرب» مصغرا لكن أعلى العنوان وليس أسفله، وفي الزاوية اليمنى دائما داخل المستطيل الدموي اسم الصحافي بحروف أكبر بقليل من الحروف التي سجل بها العنوان الفرعي. وفي الجزء السفلي من الغلاف الذي يساوي تماما الجزء العلوي ثمة تكبير لصورة تلفزيونية لأسامة بن لادن كأنه غارق في مستنقع بلون أخضر غامق وفمه فاغر بكلام! وعلى ذقنه ـ على الصورة طبعا ـ اسم الناشر وتم توضيح ازدواجيته بوُريدة حمراء ذات نواة دائرية حمراء أيضا عوض عريضة بلون المداد كما نجد داخل الكتاب!

لم يقل هيو ميلز إن قناة الجزيرة هي قناة أسامة بن لادن وإنما تساءل حول ذلك وحول إذاعة أسطواناته وبياناته من طرفها، مثلما عالج سعة الاتهامات التي كيلت للقناة بهذا الشأن فلماذا إذن يتم اختيار تلك الصورة دون غيرها لترصيع الغلاف الذي لا يفوقه كثيرا في دلالته على المحتوى عنوان الكتاب نفسه؟

أما التحدي فإني أرى أحقية رفع الجزيرة له ضد الغرب وضد العالم أجمع مثلما أكد ميلز نفسه على ذلك لما تحدث عن كون الجزيرة قد تمكنت من قلب موازين القوى في حقل الإعلام الجيد إضافة إلى كون الخبر والصورة والسبق والجدية لم تعد تصل من الغرب إلى باقي العالم وإنما الآن وتلك من ميزات وتحديات القناة فإن أولى بشائر نبإ ما لا تنبعث إلا من الجزيرة التي تجعل من العالم جزيرة تغمرها مياهها!

أمر آخر يزكي هذا التحدي هو مشروع الجزيرة الدولية باللغة الإنكليزية، إن نجحت فسوف تضيق الأرض أكثر فأكثر بأعدائها ولسوف يستفيد الكثيرون، إن لازمت خط تحرير حر وجيد، وسوف ترفع بعض غشاوة تعتيم فرضت منذ الأبد على مناح كبيرة من العالم.

ومُهما قلت عن الكتاب فلا غنى عن قراءته ليضع كل أصبعه على تحريات هيو ميلز التي ليست دون اهتمام كبير في كيفية تقصيه والخلاصات التي لا يبترها مع ذلك بترا. أمر آخر لا يخلو من الجد والطرافة، أما الجد ففي تصريح الكاتب أنه لم يحصل على أدنى مال من قبل قناة الجزيرة في إنجازه للكتاب، وأما الطرافة ففي نسخ ذلك التصريح: كوني أيضا لم أتلق منها أدنى قطمير في كتابة هذا المقال!

ونقرأ في آخر الكتاب عن الحرية والجزيرة: «لقد انفتح باب ولا أحد يقدر قط أن يوصده أبدا»!

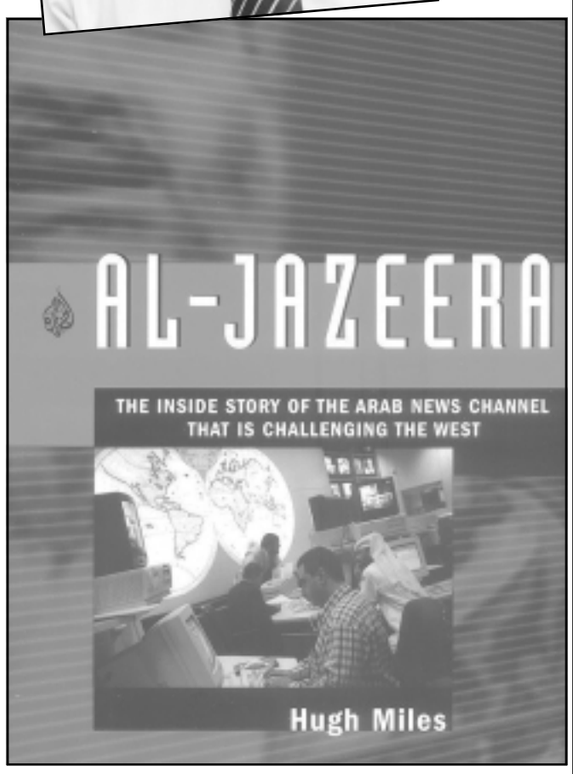

هيو ميلز وغلاف كتاب «الجزيرة»

«الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» للطاهر وطار:

رواية ساخرة عن الراهن العربي بأسلوب تلفزيوني

بوشعيب الساوري *

إذا كان الطاهر وطار قد تفاعل في روايته السابقة1 مع الوضع الجزائري، فإنه في هذه الرواية ينفتح على الوضع العربي بتحولاته المتسارعة، وأنتج رواية تشتغل على الحدث، وعلى التداخل الزمني، وتُروى بأسلوب سردي تلفزيوني.

1 ـ الحدث

تقوم رواية الحدث على نسج أحداث غير متوقعة مثيرة ومحيِّرة عبر المصادفة، يستحوذ على اهتمام الشخصيات، نظراً لتعقدِّه الذي يتطلب حلاً، مما يُمتّع القارئ ويدفعه إلى متابعة القراءة. كمَا لا يَتم فيه تصوير الشخصيات بدقة ويكون فيه الحدث هو العنصر الرئيسي. وتكون طبيعة الشخصيات وقدراتها بالمقدار الذي يتطلبه الحدث، وفي النهاية تتمكن من حله، وتعود إلى حياتها العادية دون أن يخلف هذا الحدث أي آثار سلبية أو مخاطر عليها2,

عند دخولنا إلى عوالم رواية «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» 3، يتبين لنا بجلاء أن الحدث هو العنصر البارز والمهيمن، بل لا تستقيم قراءتها دون التوقف عنده بتأن وتؤدة.

وفي هذه الرواية يمكن أن نتوقف عند حدثين:

ـ موجة الظلام والسواد التي غطت المنطقة العربية.

ـ عودة النور إلى المنطقة العربية وما صاحبها من تحولات؛ أهمها نهاية البترول من المنطقة العربية.

يثيرنا هذان الحدثان لعدة أسباب:

أ ـ هما بمثابة ذريعة، كانت وراء كل شيء، هما النقطة التي أفاضت الكأس، وقد لا نبالغ إذا قلنا هما اللذان كانا وراء الرواية. هما الفكرة المحورية أو اللبنة الأولى في إنتاجها، أي نقطة بداية النص كتابة، وذلك في إطار تفاعل الكاتب مع الأحداث المتسارعة التي يشهدها عالمنا العربي. يقول الطاهر وطار في تقديمه للرواية: «ضغط الظروف العلمية، والوضعية في العراق والعالم العربي والإسلامي، فرض علي رواية». (ص 10).

ب ـ أثرا على طريقة السرد، وجعلاها تتراوح بين استرجاعات شذرية وحوار إعلامي عبر مراسلين من كل أنحاء العالم لفهم الحدثين ومجرياتهما.

ج ـ الحدثان هما العنصران المنظمان والبانيان للعناصر الروائية الأخرى، لأنهما يُنتجان كل شيء، ظهور الشخصيات، البنية السردية، التأطير الزمني، والرؤيا الباعثة على الكتابة والتي تتمثل في تشخيص الراهن العربي في قالب ساخر يلتقط المفارقات التي يتخبط فيها الواقع العربي.

1 ـ 1 ـ الحدث الأول: حالة السواد

يتعلق الأمر بحالة الظلام التي اجتاحت المنطقة العربية، بعد الوباء أو اللعنة التي أصابت المنطقة العربية يقول: «أقول لكم من تحت السواد الدامس، إننا نغرق إننا نغرق». (ص 69). يحاول الولي الطاهر الهروب إلى الفيف إلى مقامه الزكي من ذلك الوباء. يقول: «ها هنا. في زمن الوباء الذي عم ليس فقط العالم العربي، إنما كل العالم الإسلامي. زمن صار فيه العرب والمسلمون جنداً للمسيحيين، يحملون أسلحتهم، ويلبسون ألبستهم، ويروجون لعقائدهم. زمن صار فيه الهروب إلى الفيافي، والبدء من البداية واجباً». (ص 25). لكن وباء آخر سيقتحم عليه خلوته ومقامه وهو موجة الظلام، عبر شاشة عملاقة تنقل كل ما يجري عبر مراسلين من كل أنحاء العالم يحاولون توضيح ما يجري، يقول: «أحس الولي الطاهر بيدين لطيفتين، تحملانه، وتجلسانه على عرشه في مقامه الزكي، فينفتح تلفاز شاشته». (ص 25).

ذلك الحدث الفانطاستيكي المثير الذي حيَّر العالم ككل، وشغل الناس قاطبة، وتعددت تأويلاتهم وكثرت أقاويلهم حوله، والتي تقمصت قالب الإشاعات، التي تتلاءم مع هذا العالم بأحداثه الغريبة المتسارعة، التي تُغيِّب اليقين وتكسر المنطق السليم، فيغدو الواقع احتمالياً ويصبح كل شيء قابلاً للتصديق داخله. كل ذلك يُفسِّر انفتاح الطاهر وطار على الواقع بشكل كبير، بتحويل التصورات السائدة والشائعة إلى تخييل.

من التفاسير التي قدمت للحدث:

ـ الحكومات العربية: رأت أن سبب الحدث هو الظاهرة الإرهابية، يقول: «تتفق جميع الحكومات العربية باستثناء الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية[...] على أن الظاهرة إرهابية تقف وراءها جماعة القاعدة، ومن والاها من الأصوليين المستعملين للدين الإسلامي الحنيف الذي هو براء منهم». (ص 46). وهو شبيه بتلك العبارات التي ترددها كل يوم القنوات الفضائية العربية.

ـ الفاتيكان الذي فسر الظاهرة بقيام الساعة، يقول: «لقد انساق الفاتيكان، وراء الرأي القائل بأن قيام الساعة قد حل». (ص 53).

ـ إسرائيل التي رأت أن وراء الأمر إيران وبوجنبورة: «ومع ذلك، فلا تعدم أصابع سيست الظاهرة، متجهة نحو إيران وبوجنبورة». (ص 37).

ـ الدكتور حنزليقة المتخصص في الشؤون الإسرائيلية أرجع الأمر إلى مؤامرة أمريكية إسرائيلية للتخلص من العرب.

ـ سبب الحدث هو الحرب الدائرة في العراق.

ـ هناك من أرجع الأمر إلى غاز أطلقته أمريكا.

يعكس هذا الحدث وما صاحبه اللايقين واللامعنى التي أصبح يعيشها عالمنا العربي من جراء أحداثه المتسارعة وخيباته المتوالية، ويعكس كذلك حالة النوم الفعلية التي يعيشها عالمنا العربي واكتفاؤه بالانفعال مع الأحداث عوض صُنعها.

على الرغم من كثرة التأويلات والتفسيرات لكنها لا تقنع، مما يعني غياب اليقين، لأنه عندما تكون هناك كارثة أو حدث تكثر الأقاويل والأحاديث، التي تكون كلها قابلة للتصديق، فتعرض الآراء دون وثوقية ويغدو كل شيء نسبياً. ولا مصدر لليقين.

إنها نظرة ساخرة لما يجري في عالمنا العربي من انكسارات وهزائم وويلات.

1 ـ 2 ـ الحدث الثاني: عودة النور

بدون مقدمات يقع تحول مفاجئ بزوال الظلام (الحدث الأول) وعودة النور، تلك العودة التي صاحبتها مجموعة من التحولات التي ستصيب المنطقة العربية مما يفسر أن كل حدث يفضي إلى حدث أسوأ منه. إنها حالة المنطقة العربية التي تعيش على استهلاك كل شيء بما في ذلك الأحداث:

ـ عودة الخلافة بمصر، يقول: «تم إعلان الشيخ بلادن على رأس الدولة المصرية خليفة للمسلمين». (ص 37).

ـ الجزائر، حدوث محاولة انقلاب فاشلة، يقول: «لقد جرت محاولة انقلاب من طرف منظمة العمي، لكن تمت السيطرة عليها في الوقت المناسب، وتم إيقاف جميع عناصرها، بما فيهم المشبوه في أمرهم. وهم كلهم عمي». (ص 78).

ـ الجزيرة العربية نهاية البترول «عدة برقيات، أكدها عبد الرحيم فقراء من واشنطن، تقول الأولى إن الشرق الأوسط لم يعد يتوفر على النفط، وقد فقد بالتالي كل قيمة استراتيجية له». (ص 101).

ـ بأوروبا تم قطع العلاقات مع أمريكا والتعامل بالأورو». (ص 120).

ـ اليمن جفاف عشبة القات، يقول: «ها هي اليمن كلها، عن بكرة أبيها، تخرج لتعلن حزنها لهذا المصاب الجلل المتمثل في جفاف كل أوراق القات، فما أن عاد النور، واستبشر الخلق الذين هرعوا إلى الحقول، وكأنها أسراب نحل، مبكرة، حتى ارتفع التهليل والتكبير، ثم النواح والبكاء». (ص 99).

ـ تفكيك إسرائيل وتحقق المستحيل «فقد عم بسرعة البرق خبر حل الدولة العبرية، ورحيل جميع اليهود الوافدين، وإعطاء الخيار لليهود من أصل فلسطيني في البقاء أو الرحيل». (ص 110).

وغيرها من الأحداث كاستقلال فلسطين وقرار أمريكا بسحب قواتها من المنطقة العربية.

يقدِّم لنا الطاهر وطار صورة عن العالم العربي بعد نهاية البترول. وكيف سيتفاعل العرب مع هذا الوضع الجديد، كاشفاً ومزيلاً الأقنعة عن تلك الحضارة البترولية المبنية على الوهم، بمجرد نهاية البترول تظهر على حقيقتها، بنبرة لا تخلو من سخرية مرة للوضع العربي.

كان الحدثان الناظمان للرواية فرصة لإثارة بعض القضايا الراهنة، سواء داخل العالم العربي أو خارجه؛ كالإرهاب، والحركات الأمازيغية وحقوق الإنسان. كما صاحب ذلك نبرة نقدية ساخرة لكل المفارقات التي يحفل بها الوطن العربي، وتَمَثَّل ذلك في نقد الذات والآخر، وتعدَّى ذلك إلى نقد مفهوم الوحدة العربية ودعاتها، ونقد بعض القيم والأمراض الثقافية، إذ يطال النقد كل العرب شعوبا وقادة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى السخرية من الذات العربية وتشخيص عيوبها.

2 ـ تداخل الأزمنة

تأثر الزمن بالحدث، الذي يتطلب فهماً وتفسيراً، وجَعَله عبارة عن تداخلات بين الحاضر والماضي العربي. فيبدو لنا الزمن في هذه الرواية ثابتاً وواحداً وكأنه يعيد نفسه، يقول السارد: «ذاكرة الولي الطاهر تستعيد صوراً وأخيلة، عن وقائع جرت، لكن لا يميز، أو حتى يتصور زمن وقوعها، الأمس واليوم والسنة الماضية، والقرن الماضي، كلها، آن، قد يصغر وقد يكبر، قد يطول وقد يقصر، قد لا يكون سوى ومضة، من ومضات حلم، أو كابوس». (ص 17). لتتداخل لديه أزمنة الحاضر بالماضي، وتصير أحداث التاريخ واحدة فلا فرق بين ما جرى وما يجري وما سيجري. وهذه السمة لمسناها في رواية «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» 4,

هناك ذهاب ومجيء للرواية في التاريخ العربي الإسلامي، من بداية الدعوة الإسلامية إلى الزمن العربي الحالي والمتمثل في سقوط العراق يقول: «شبه دوران للمكان داخل الزمان، وللزمان داخل المكان، في دوامة عرضها من السينيغال إلى دكة، وطولها من معركة بدر إلى مثول صدام حسين أمام المحكمة». (ص17).

بُغية تشخيص الراهن العربي بنبرة ساخرة، وفهم حال العرب يقول: «لم يبق سوى الاستيعاب. استيعاب ما حدث طوال خمسة عشر قرناً، واستيعاب حال العرب، وحال المسلمين عموماً». (ص 25)، مما يجعله يخلص إلى تأكيد حالة الجمود والتكرار التي يتخبط فيها العالم العربي، ويتجلى ذلك في أن العرب يكررون أنفسهم ولا جديد: «يقول إمام جامع الدار البيضاء المنكب بجلاله، يلعق مياه بحر الظلمات، في خطبة يعيدها كل جمعة، من ميزات المسلم، طاعة الله والرسول وأولي الأمر، فيرن صداه في جامع الزيتونة والأزهر وبيت المقدس والأمويين ومكة والمدينة، ويأتي الرجع اللهم احفظ أمير المؤمنين». (ص 21)، فيصور وضع العرب الجامد كالثعبان العاجز عن تغيير جلده، يقول: «ثعبان يتلوى ويتلوى، يعاني عسر تغيير جلده، كلما سلخ شبراً، عاد الجلد إلى الوراء، وكلما تلوى غلبه النعاس. ربما لأن أسنانه منزوعة، وربما لأن أسنانه منزوعة، ولربما لأنهم ما يفتأون يستلون سمه». (ص 23). إن الانقطاعات والتوترات التي يعرفها الراهن العربي، فرضت على الطاهر وطار أن يكتب هذه الرواية بطريقة تقوم أساسا على تداخلات زمنية، تلك التداخلات التي يعيشها الإنسان العربي في فكره، فالتداخل بين الحاضر والماضي هو تجربة نفسية يعيشها الإنسان العربي، الذي لا يستطيع التخلص من ماضيه الكامن فيه الذي يؤثر في حاضره، ويغدو مرآة لقراءة الحاضر.

تتداخل الأفكار كما تتداخل الأزمنة والأحداث في ذهن العربي، كل ذلك يفسر عبثية الأحداث وتواليها وتعقدها في عالمنا العربي. من هنا تكمن قدرة الطاهر وطار على نقل وتحويل التجربة النفسية والذهنية التي يعيشها الإنسان العربي في عالم اليوم إلى لغة وسرد.

3 ـ السرد

أثَّر الحدث في رواية «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء» على السرد وجعله يتراوح بين تقنيتين:

ـ تأرجح الذاكرة بين الماضي والحاضر: تقدم هذه التقنية شذرات سردية من التاريخ العربي حول بعض الأحداث التاريخية المحيرة والتي تركت مجموعة من علامات الاستفهام. يهدف من ورائها السارد، ومعه الطاهر وطار، فهم ما جرى ويجري من تحولات تمشيّاً مع الأحداث المتسارعة التي يعيشها العالم العربي من اضطرابات وأزمات وهزائم وتنازلات، يقول مثلاً: «مالك بن نويرة... يا كبدي...خُدعت يا أيها الشاعر المتمتع بالجمال». (ص 13).

ـ السرد التلفزيوني: فرض تسارع الحدث، بل أحداث الرواية المتسارعة التي يكتفي الإنسان العربي بالتفرج عليها مذهولاً كما فعل الولي الطاهر، نظراً لعجزه وثباته ولأنه يعيشها كل يوم، على الرواية سرداً إخبارياً يتمثل في السرد التلفزيوني الذي يميز عصرنا نظراً للتطور الذي عرفته وسائل الاتصال، والشاشة هي القادرة على مسايرة ذلك التسارع، عبر صوت سردي مركزي ينظم السرد بواسطة مراسلين ينقلون أصداء الحدثين المثيرين في كل أنحاء العالم. إن السبب الذي دفع الطاهر وطار إلى اتخاذ هذا الأسلوب يمكن أن نرده، إلى أنه أراد أن يكتب رواية عن الواقع العربي الراهن، بصورته، وبقنواته الفضائية الحالية، فكتبها بأسلوب سردي مستوحى من هذا الواقع بأحداثه المتسارعة.

إنها صورة موازية لرواية حقيقية يعيشها عالمنا العربي كل يوم ونلتقطها عبر القنوات الفضائية، عبر أحداث متلاحقة صادمة نكتفي بالانفعال معها دون أن تكون لنا القدرة على مجابهتها، لأن الرواية تسعى دائماً إلى تقديم صورة كاملة تقريباً عن الحقيقة البشرية 5. وفي ذلك تعبير عن رؤيا تقدم صورة قاتمة عن الراهن العربي، تنم عن تشاؤم من المستقبل الذي بدأ يدب في أوصال المثقفين العرب. وبذلك استطاع الطاهر وطار أن يصوغ الوضع العربي في قالب روائي ساخر.

* باحث في السرد العربي

الإحالات

1 ـ الطاهر وطار «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»، سلسلة روايات الزمن، منشورات الزمن، الرباط، 2000.

2 ـ إدوين موير، بناء الرواية، ترجمة إبراهيم الصيرفي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، 1965، ص. 15 ـ 17.

3 ـ الطاهر وطار، «الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء»، سلسلة روايات الزمن، منشورات الزمن، الرباط، 2005.

4 ـ بوشعيب الساوري، «حينما يتحول الواقع إلى أسطورة، قراءة في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي»، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، 5 يناير2001، ص. ,2

5 ـ مشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات بيروت، ط1971, ص,40,

الحشرجات

عبداللَطيف الوراري*

يا أيُّهذا
شاحبا في كمِّ وردته
ومشاَء على قيعان عزلته
يخلو الى قمر المرايا
ماذا ترى حتى أراك؟
فقد استبدت بي صباباتي، وأوجعني دمي،
ودالت من عليَ يدي
وأوقفني ابتلائي النَاي إذ هجست خطاك

ما لا يحدُ
أرى عيونا تسبق العطشى الى شبق المساء
اسرة لمودة الغرباء يجرفها الحنين الى الحنين
عطور أفلاطون في ورق ابن مقلة أخطأت تأويل هيغو
سدرة تجتر مرضى البين بين
جديلة لما تزل للطير أنى أودع الليل المراثي
ضفة موارة بالشوَق في شيراز
ضوءا شاردا في شطحه حتى الصباح
أرى هنا
نفسي هناك

أي الطريق بلوت.. أين مررت بي ونسيتني؟

صارت خطاي شوارد البرحاء يسحبها معي
في الموت عوَاد الحياة
وصرت أخرج في عصا بين